ماذا علمتنى الحياة ؟ (*)

تأليف الأسقف و . ر . أنج

بقلم الأستاذ على محمد سرطاوى

تعريف الكاتب :

(ولد عام ١٨٦٠ فى مقاطعة يورك شير . اشتغل محاضراً من ١٨٨٩ – ١٨٠٤ فى جامعة أكسفورد (كلية هـ تفورد) . ثم كان قسيساً لإحدى كنائس لندن بضع سنوات ، ثم أستاذاً للاهوت فى كلية ماجد ولين كبردج وعين عام ١٩١١ أسقفاً لكنيسة (سنت بول) . ثم ترك الخدمة العامة ١٩٣٤ . ألف ونشر مايزيد على أربعين كتاباً ومن بينها كتب قيمة عن الصوفية والمتصوفين) .

ماذا علمتنى الحياة ؟ إن سبعة وثمانين عاماً يعيشها المرء كافية لتعليمه شيئاً .

كان ماركوس أوريليوس يقول : إن رجلاحصيفاً فى الأربعين من عمره يرى من الحياة ما يكفى لتعليمه الدور الذى سيمثله على مسرحها . ولعله مصيب فى قوله . إن العقل والضمير قد بدآ – إلى حد بعيد – يستيقظان فى القرون الوسطى . أحسب أن هذه المقالات لن تكون إلا يوميات مركزة على طراز أصيل ، غير أنى ذكرت كل مايمكن قوله عن حياتى فى كتابى المسمى (وداعاً أيها الوادى) الذى كتبته للسادة لونجمان عام ١٩٣٤ وذلك حين تخليت عن كرسى المسؤولية فى التوجيه الروحى ، وأحسب أن طبعة ذلك الكتاب قد نفدت الآن ، لأن قاذفات الألمان قد دمرت مستودعات الناشرين . وأمل الأمل غير بعيد فى إعادة طبع ذلك الكتاب إذا كانت هنالك رغبة فى تسجيل حياتى المتواضعة إذ لم يبق شىء يتصل بها غير ما هو محفوظ فى سجلات الأكاديمية البريطانية عن تاريخ حياة الأعضاء والذى قد ينشر بناء على رغبتى . لذلك لا أجد مناصاً من الزور من الكرام بما نشر سابقاً عن حياتى وأنا أكتب هذا المقال .

لقد تعلمت شيئاً واحداً بصورة لا تقبل الشك ، ألا أحسن الظن بنفسى كثيراً . وكلما أويت إلى فراشى تمر الحماقات وأعمال الطيش التى تتصل بالنصف الأول من حياتى ، كفلم متصل الحلقات ، أمام عينى تحملق فى مكشرة عن أنيابها . يقول الكونت كسرلنج : علينا أن لا نزعج أنفسنا بأمور حدثت قبل خمس عشرة سنة ، غير أننى لا ألق اللوم عن نفسى . حينما أفكر فى الحنان الذى كان يغدقه على أبواى وأهلى ، وبعواطف الصداقة الخالصة التى كان يغمرنى بها الأصدقاء ، لا أجد مناصاً من اتهام نفسى بعدم المبالاة ونكران الجميل ، وهو خطأ فى حد ذاته جد خطير .

والذى يبدو لى أننا لا نتذكر من مثالبنا غير التى لا وجود لها فى أخلاقنا الآن . إن ذاكرتى تكاد تفيض بالحماقات التى لم أصحها من نفسى . وهنالك أسرار يحملها الموت معى إلى القبر وهى مزيج من القسوة والأخطاء والطيش .

هل نحن ملزمون أن نطبق على أعمالنا مبدأ (لا تحكم على نفسك) . قال سنت بول : (لا أستطيع الحكم على نفسى) . وقالت بورشيا : (نحن نطلب الرحمة من الله) . إن الله يغفرلنا الذنوب التى نتوب عنها توبة صادقة وإن كنا لا نغفر لأنفسنا بعض ما اقترفنا من ذنوب .

أتراى أستطيع تذكر المباهج الكثيرة التى مرت بحياة كان التوفيق الظاهرى حليفها فى الدنيا ؟ كلا . لقد كان نصيبى من أوجاع الحياة أكثر من مباهجها . لقد كان بيت القسيس فى القرن التاسع عشر – كبيت القسيس الاسكتلندى – المكان الذى تترقى فيه المثل العليا للخلق والذوق : حياة رتيبة بسيطة تنس بالعقل كثيراً ؛ لا فقر ولا غناء ؛ صحة وعمل مثمر ، وهى أمور لم يكن لها وجود إلا فى بيئة من هذا النوع فى ذلك الزمان .

(*) أصدرت مطابع السادة ادهام فى لندن عام ١٩٤٨ كتاباً قيما عنوانه (What Life Has taught me) تحدث فيه عشرون من الرجال والنساء ، وهم الصفوة الممتازة من أساطين الفكر فى بلاد الانجليز فى الوقت الحاضر ، عما تعلموه من الحياة ، وقد ترجمنا لقراء الرسالة المقال الأول فى ذلك الكتاب وهو بقلم الأسقف و . ر . أنج

(المترجم)

كان أبي لا عباً مبرزاً في « الكركيت » ، ومعيداً في الكلية التي تخرج منها في أكسفورد ، وأبعد الناس عن الطموح . لقد اكتفى من دنياه أن يكون قسيساً مساعداً لجدي شورتون رئيس الشمامسة حتى بلغ الخامسة والأربعين من عمره . حتى لقد رفض أن يكون مطراناً لأبرشية سلسبوري ذات المكانة الممتازة عن طريق التواضع الرخيص والخمول النفسي . وكانت والدتي امرأة عالية الثقافة تعلمت في ظلها تعليما مكنني من اجتياز الفحص لدخول كلية ايتون ، بعد دراسة فصل واحد في مدرسة خصوصية ، وكان ترتيبي في ذلك الفحص الثاني . لقد ابتسم الحظ لي في ايتون وتلمذت على أمهر أستاذ في الآداب الكلاسيكية وهو فرانيس سنت جون تاكاري ابن عم الروائي العظيم .

كانت تلك الفترة هي عصر الدراسات الكلاسيكية الذهبي في ايتون . لقد ارتفعت دراساتنا في تلك الآداب إلى مستوى لم تعرفه جامعة كمبردج في تاريخها الحافل المجيد ، فحزنا درجات الشرف ، ولكن الحظ لم يداوم ابتسامه نعيس في وجوهنا ونقل أستاذنا العظيم إلى أكسفورد .

لم يكن هنالك مكان لمحاضراتي في كلية (كنج) ولذلك رحت أعلم اليونانية واللاتينية لطلاب ايتون الصغار — ذلك الأمر الذي لم يكن من واجبي . وبعد أربع سنوات مضنية مع أولئك الصغار ، نقلت إلى جامعة أكسفورد محاضراً فبقيت بها خمس عشرة سنة والسيادة ترفرف على رأسي . وحينما أخذ السأم يدب إلى نفسي من حياة الجامعة ، تدم لي صديق القسيس هنسون منزلاً يقع في (وست آند) ، وقد صادف التغيير الجديد أسعد حادث في حياتي وهو الزواج .

لست أدري هل من حسن الذوق أن أقول ذلك ؟ لقد طلب إلي أن أذكر ما علمتني الحياة ، وهذا الشيء هو أثمن وأروع دروسها . ليس الزواج السعيد هو أحسن ما في حياة البشر ، إنما تعلت إلى جانب ذلك أن الحب لا يختلف في مقداره وإنما في نوعه بالنسبة لنعم الله علينا . حينما قال سنت جونس : (إن الذي لا يحب لا يعرف الله لأن الله هو المحبة) ، كان يعبر بأبسط الكلمات عن الحقيقة العليا ، وهي أن الحب يقودنا إلى عالم الحقيقة من أقصر طريق لا يعرفه إلا الذين يحبون .

هنالك يبدو الخالق جسما في الخير المطلق والصدق والجمال . إن هذه في حد ذاتها ليست في واقع الحياة غير مثل أفلاطونية إنها تخص عالم الروح ولا تصل إليها إلا عن طريق الإيمان ، كما تتراءى لنا الصورة في المرآة على حد تعبير سنت بول . إن الحب هو الجناح القوي الذي يحمل أرواحنا محلقة إلى ملكوت الله . لقد أوضح تلك الحقيقة سنت برنارد كلارفو فيما يتعلق بحب الله ، لكن سنت جونس قال لنا إن الذي لا يحب أخاه وهو يراه لا يستطيع أن يحب الله وهو لا يراه .

كثيراً ما رددت وأنا أبارك زواج فتى وفتاة من على مذبح الكنيسة البيت الثاني من شعر شكسبير : « لا قيمة للروابط الظاهرية في تمكن العلائق الروحية بين زوجين كريمين » . وهو من أروع ما قيل من الشعر .

لست أرى مانعاً من الخوض في هذا الموضوع . ليس الضرر الاجتماعي في انتشار الدعارة بأكثر من التساهل في شأنها التساهل المعيب في طبقات المجتمع العالية التي يُفرض أن تكون نموذجاً للفضيلة في الحياة . لقد تدهور الخلق في الخمسين سنة المنصرمة تدهوراً مسيباً يدعو إلى الأسف الشديد .

إن السعادة الثانية لزواج سعيد أساسه الحب هي الأبناء . لقد كان أولادنا الخمسة مصدر سعادة خالصة لنا . مات اثنان من أولادي وهما صغيران ، وتبعتهما ابنتي بعد مرض طويل ، وقد يزق قلبي صوتها فرثيتها بأبيات أعتقد أنها كانت مصدر عزاء وسلوى لقلوب محزونة كثيرة . وتسلم ابني الأصغر في ايتون وفي كلية ماجدولين من جامعة كمبردج ، وانتظم في سلك الكهنوت وأحبه الناس كثيراً في بور كشير . وكان ينتظره مستقبل باهر في خدمة الكنيسة . كثيراً ما كنت أردد قول هكتور في الياذة هوميروس حينما حمل طفله استيانكس بين ذراعيه وهو يقول : « سيقول الناس عنه إنه كان أحسن من أبيه » . لكن الحياة لم تمهله . لقد دفعه الواجب إلى التطوع في قوة الطيران الملكية إبان الحرب العالمية الأخيرة ، وعين مدرباً ، وكان عمله يستوجب أن يطير مع المتمرنين ، وقد اضطرت الطائرة مرة إلى الهبوط ، وتخلص ابني ريتشارد منها ، ولكنه حينما حاول إنقاذ رفيقه وتلميذه من الطائرة المحترقة اختنقوا وماتا معاً .

علينا أن نحذر من الآمال الكثيرة في الحياة الأخرى . إننا لا نستطيع تصورها إلا في حدود الزمان والمكان ، ولكن إذا كنا من الذين يؤمنون بأن منقذنا المسيح قد ضمن لنا الحياة الخالدة فإن ذلك كاف لأن ننظر إلى الموت بغير ما يتراءى لنا . ولعلنا نوافق وليم بن على قوله : (إن الذين يحبون ما وراء الحياة ، لا تستيع الحياة فصلهم عما يحبون ، وليس في مقدور الموت أن يقتل ما لا يمكن أن يموت ، ولا أن يفرق بين الأرواح التي جمعها الحب في الحياة والتي سيجمعها ملكوت الله فترى نفسها في المرآة الإلهية وتتحدث بأسلوب طليق ...)

لقد عينت عام ١٩٠٧ أستاذاً لكرسي اللاهوت في كمبردج بعد إقامة تقرب من السنوات الثلاث في لندن . كانت حياتي في عملي الجديد رتيبة ، هادئة ، رضية ، وكنت أتمنى أن تستديم حتى نهاية عملي في الخدمة العامة . ولكن التاج بوساطة المستر اسكويث عام ١٩١١ عرض علي منصب مطران كنيسة سنت بول ، وقد رأيت أن اللباقة تقضي على أن أقبل مسؤولية هذا المنصب الخطير .

لن أذكر هنا كثيراً من الثلاث والعشرين سنة التي قضيتها في هذا المنصب ، لأن ذلك قد استغرق القسم الأعظم من كتابي المشار إليه عن تلك الذكريات . إنني مدين للصحافة بقسم كبير من التوفيق لعظيم ما تلقيت به من الترحيب والتشجيع ... لقد لقيت كتبي رواجاً عظيماً ، ودعيت لإلقاء محاضرات لا يبلغها الحصر . قال لي رئيس الوزراء حينما سلمني براءة التعيين : إنه يأمل أن أحيي تقاليد ذلك المنصب الروحي الخطير في كنيسة انجلترا . لقد كانت تمر بخياله ذكريات رواد الكنيسة وبناة مجدها الأولين من طراز كولت ، ودون ، وتلستون ، وملمان ، ومانسل ، وشرك ، وأحسب أنني قد سرت على آثارهم كأحسن ما يكون ، ولكن ليس من حق أن أحكم على أعمال نفسي . ولا أرى أيضاً ضرورة لذكر الثلاث عشرة سنة التي قضيتها في ريف بوركشير بعد اعتزال الخدمة . إن بلوغ الإنسان أرذل العمر تجربة خطيرة من تجارب الحياة . إنني لا أكاد الآن أشعر بأثر أي شيء في عواطفي . تجري الأيام والشهور والسنون وأنا أحسبني في حلم طويل . لم أجد شيئاً في الحياة يستحق أن يتهالك الناس عليه ، لأن الدنيا بكل ما فيها من متاع وسرور ، ليست إلا خيالا يمر مرور سحابة صيف ، وليس في حياة فانية شيء يستحق أن يرجى ويؤسف عليه . إلا أن في رحمة الله ما يسع بلادي البائسة وأبناء وطني التعساء .

إن تراخي رباط الحياة التدريجي من جسدي لا يخيفني كثيراً ، ولن أبكي كما بكى شاعر الحب الإغريقي ممنرامس وتمنى أن يموت في الستين من عمره ؛ وليس كما فعل هو راس الذي كبر في غير أوانه ، وأصبح يحس بفقد مباهج الحياة واحدة بعد الأخرى . لا أريد أن أردد قول تنسون الرزين : (إن السنين التي تجعل من الطيش اتزاناً في الإنسان ، هي التي تأخذ ما تعطي وتترك الظلام في البصيرة والسنين) ...

لعل في استطاعتنا تجنب الإحساس بحالة من هذا النوع في الشيخوخة ، وإن كنا لا نرى رأي السير توماس افرري الذي يريد أن نشعر بشيخوختنا إحساساً تنمى فيه أرواحنا بدلا من الإحساس بضعف أجسادنا ... أستطيع أن أقول إنني لست تعساً ... إن الراحة بعد التعب الزمن أمنية جيلة ، وإذا كنا نؤمن بصدق الديانة المسيحية فعلينا أن نؤمن بقول لويس تاستشب : (ليس للموت وجود) . إن المسيح يقول في الإنجيل الرابع : « إن الذي يعيش ويتبعني فلن يموت أبداً)

(البقية في العدد القادم) علي محمد سرطاوي

ظهرت حديثاً

الطبعة الثالثة من المجلد الأول من كتاب :

وحي الرســـالة

للأستاذ أحمد حسن الزيات

يطلب من دار الرسالة ومن المكتبات الشهيرة

وثمنه ٤٠ قرشاً عدا أجرة البريد